وابتسمت معلمتي ...

أريج عطايا

لا أدري إن كانت هذه المواقف ستؤثر فيمن يقرأها، ولكنها تعني لي الكثير، فجميعها جعلتني أستمر لأصل إلى ما أنا فيه من حبي لمهنتي، وحب الطالبات لي، وعززت قناعتي بأنني لم أخلق إلا لأكون معلمة ملتزمة، وترى في عملها أهم مسؤولياتها.

خلال تلك المسيرة، ارتسمت في ذهني مجموعة من الشخصيات التي وضعها القدر في طريقي، لا أذكر أن حصل لي أي موقف حتى دخلت الصف الثامن. أطرق باب ذاكرتي فتقابلني أسوأ الذكريات؛ حين عدنا من الكويت لنبدأ دراستنا العام 1990 في مدرسة القرية، ولم أنهِ يومين حتى دخلت المستشفى بسبب مرض أصابني لم يسمح لي بالعودة إلى المدرسة مدة شهر ونصف، وعندما عدت كان موعد الامتحانات لنصف الفصل الأول. أذكر حينها أنني سببت دهشة لكل الطاقم التعليمي في المدرسة بسبب حصولي على نتائج متفوقة في جميع المواد، وكان الأكثر حديثاً معلم مادة العلوم، حيث دخل الصف بهيبته المعتادة، وطلب مني الوقوف أمام جميع الصف، ولم أكن أعرف أكثرهم، وسألني دون إنذار: «كيف استطعت الغش للحصول على هذه العلامة؟».

تعالت الأصوات ما بين ضحك وصراخ، لم يكن مازحاً حينها، لأنه سمح لنفسه بتركي أبكي دون أن يتأثر، ولليوم ما زال أثر هذه الموقف يزعجني، لكنه جعلني أعرف كيف أحادث طالباتي جيداً دون أن أؤذي مشاعرهن.

صدمت جداً بطريقة التعليم في هذه البلاد، علمونا هناك في البعيد أن الكتاب مرجع، والمعلم مساعد، وهنا أصبح الكتاب على الرف، والمعلم هو سبب كل الأخطاء!

كبرت حتى الحادي عشر، وتعرضت للموقف نفسه؛ مدرسة جديدة، معلمة جديدة، صف علمي متنافس، وحللت في أول امتحان لنا في مادة الفيزياء سؤال عجزت عن حله كل الطالبات، سألتني المعلمة حينها: «كيف حللت السؤال وهو سؤال صعب جداً؟» ولم يكن حينها أي مرجع نستعين به سوى دفتر التلخيص، حتى أنه لم نكن نتوفر على كتاب لمادة الفيزياء.

نظرت إليها وتذكرت معلمي السابق، وكأني كنت هيأت نفسي للإجابة مسبقاً، فقلت لها «لأني أحببت المادة، وأحببتك، ولذلك سأتخصص فيها». شعرت بالسعادة، فأنا من أثرت بها وليس هي، أنا من جعلتها تبتسم ... ساعدتني حين انقطعت عن الامتحانات النهائية بعد وفاة أخي، وطلبت مني الحضور لمنزلها، وراجعت معي المواد جميعها، وكنت أرى في عينيها إحساسها الرائع عندما أخبرتني أن مادة الفيزياء ستخسر معلمة قوية إن لم تتخصصي بها ... علمتني الأخلاق في التعليم، درست الفيزياء في الجامعة، وأبدعت بكل المقاييس حتى نهاية السنة الرابعة، تخرجت بمعدل جيد جداً، كانت أروع لحظات وداع الجامعة حين أخبرني الدكتور الرائع سامي جبر بأني أستطيع السفر لأمريكا، لأنه رشحني للسفر لإكمال الماجستير والدكتوراه، فاعتذرت بهدوء وأنا أمازحه، إذا ذهبت لن أعود، ولا أريد أن يخسرني وطني ... ضحك وقال: لو عدت بعد عشرين سنة ووافقت، ستكون لك، ... علمني الوفاء بالوعد.

اثنتا عشرة سنة وأربع تساوي ستة عشر سنة هي نفسها عدد السنوات التي أتممتها وأنا في مهنة التعليم، كانت عالماً آخر عما سبقها، مليئة بالتنافس، وأحياناً بما قد أسميه حقداً وألماً. هناك أحداث لا أستطيع ترتيبها جيداً، لأني أتمنى الأجمل دائماً، لكني لم أكن أعلم أن الحب الذي زرعته في قلوب طالباتي من عشر سنوات، جعلهن يبحثن عني ليخبرنني أنهن درسن الفيزياء لأجلي. تلقيت

ذات يوم اتصالاً مفاجئاً لم أكن أعرف صاحبة الصوت، حاولت أن أكون مجاملة حتى أعرفها، ولكن ذاكرتي خانتني، قالت: «إذا لم تعرفي صوتي لن أغضب كثيراً، فأنت من جعلني أدرس الفيزياء وأصبح معلمة»، ولم أعرفها أيضاً، فأتمت حديثها هل تذكرين بطارية السيارة حين شغلنا الإذاعة والتدفئة المركزية عندما أحضرنا الماتور؟ نعم، تذكرتك، الصغيرة هناء ابتسمت وقالت: حصلت على رقمك من مدرسة أداوم فيها، ورأيت اسمك على لوحات في المختبر، وطلبته من معلمات صديقاتك وأريد رؤيتك ... هي جارتي في المسكن، وأنا لا أعلم هي تسكن في حي قريب، زرعت الحب وحصدته في قلوب طالباتي.

إحدى طالباتي المتفوقات مهندسة، تخرجت من جامعة بيرزيت، إلى الآن تزورني وتخبرني دائماً أنها تعترف بفضلي، لأنها قضت نهار امتحان الفيزياء في المنزل تدرس وهي تبكي، لأن مديرة المدرسة أجبرتها أن تكون عريفة حفل للمدرسة، واليوم التالي اختبار فيزياء تجريبي... اتصلت تطلب مني المساعدة بعد أن لاحظت استيائي أثناء الحفل بوجودها ولديها امتحان في اليوم التالي، لم يكن مني إلا أن استقبلتها في منزلي، وساعدتها حتى أصبحت بنفسية أفضل، ودخلت قاعة الامتحان مبتسمة وأبدعت فيه، وحصلت على نتائج ممتازة، وأذكر قالت: لولا خوفي منك وحبي لك لم أحصل على ما حصلت عليه أشكرك ... زرعت الحب وحصدته.

وهذا الحب الذي زرعته جعلني أرى الدموع في عيون طالباتي عندما ودعتهن حين نقلت إلى محافظة أخرى بحكم الزواج. أذكر تلك الطالبة التي قالت أريد معلمة تخبرنا نكتاً فيزيائية قبل بداية الحصة، وتخبرنا أن أينشتاين يغنّي للفيزياء مثل فيروز تماماً، وتسمينا «سنافر».

شعرت بالحقد مرة واحدة من معلم لمادة الفيزياء كان يعطي ما يسميه بالدروس الخصوصية في القرية التي كنت أعمل فيها معلمة لطالبات الصف الثاني عشر، فامتنعت الطالبات عن أخذها، وأخبرنه أن معلمتنا تعطينا في المدرسة ما يكفي، وتحضر أيام السبت، ولا نحتاج حصصاً، فقام بتحريض الأهالي ليستطيع العودة ويحصل على 200 شيكل في الحصة، لأن مهنتنا أصبحت تجارية وتباع وتشترى ... شعرت بالأسف على هذه المهنة النبيلة، وعلى كل من يقوم بها ... مهنة تباع وتشترى.

لا أخفيكم أني أحببت هذه المهنة، وبنيت صرحاً قوياً وجسراً رائعاً بيني وبين من رأى فيها مفتاحاً لحرية رأيه، وإنتاج جيل كبير يحمل معاني التربية والاحترام ... حتى مررت بأصعب مرحلة خلال المسيرة على الإطلاق، حين تعبر مواقف تستهتر بقيمة المعلم، وتعتبره إنساناً لا وجود له ... لم أكن أعلم بقوانين التربية والتعليم جيداً، أو بالأحرى لم أكن أعلم بقوانين خاصة قد تخترع وتحمل الأذى والتطاول، ... قوانين خاصة اخترعت لإيصال البعض إلى القمة على حساب غير الملمين بهذه القوانين.

لذلك، وجدت نفسي داخل حرب غاية في القسوة والاستهتار المؤلم الذي جعلني أتراجع وأترك أرض الساحة التي سأخسر فيها بالتأكيد ... فهذا الزمان زمان النظام وقوانينه، وسيأتي زمن يكون لمن يعرفون الحق، ويحترمون شخصاً يدعى معلم. ولكن هذا جعلني أرى أهمية أن يكون المعلم على معرفة بالقوانين والأنظمة، لكي يعرف حقوقه ويتمكن من تحقيقها والدفاع عنها. كانت التجربة قاسية، ولكنها جعلتني أصلب وأقسى، وجعلتني أقرأ كتب القانون لأفهم كيف يمكن أن أكون مديرة، ولأني خلقت لأكون معلمة، سأبقى كذلك، ولن يثنيني عن ذلك أي شيء.

مدرسة بنات رافات الثانوية

طالبات مدرسة بنات رافات الأساسية تعملان على تنفيذ مجسم فني ضمن مشروع أطفال الشمس مع الفنانة دينيث ودارتشيج من سيريكلانكا.